Paul Tabar (ed.)
Lebanese Diaspora: History, Racism and Belonging
(Beirut: Lebanese American University (LAU), 2005). 384 p.

الشتات اللبناني: التاريخ والعنصرية والانتماء

سامية الأسطة(*)

الجامعة الأميركية في بيروت.

ـ ١ ـ

يقول مثل لبناني عامّي إن عدد اللبنانيين الذين يعيشون في الخارج يفوق عدد اللبنانيين في الدولة ـ الأمة نفسها. لسنا الآن بصدد مناقشة صحة هذا القول، فموضوعنا هو الفكرة القائلة إن اللبنانيين منتشرون في جميع أنحاء العالم، لكنهم يظلّون مرتبطين بوطنهم الأم. الكتاب الذي أتحدث عنه هو نصّ أنثولوجي (Anthological) يتناول التجارب المتعددة الأوجه التي يمرّ بها لبنانيو الشتات في أستراليا وكندا وكوبا والسنغال والولايات المتحدة. يقدم المحرّر بول طبر مجموعة من الدراسات الفكرية التي تلقي الضوء على الجوانب التاريخية والعرقية والشخصية لمسعى البحث عن هوية، الذي يختبره جميع أفراد الشتات اللبناني بنتيجة الهجرة. وهذه المجموعة المتنوّعة من المقالات، التي يقدمها بول طبر، والتي تتحدث عن تجربة الشتات اللبنانية، تسلط الضوء على الصعوبات الكامنة في تبديل الهوية وفي محاولة الحفاظ على التقاليد ضمن فضاء جديد.

ورغم وجود تعريفات عديدة للشتات، يختار طبر دراسة هوية شتاتية (Diasporic) باعتبارها تماهياً متعدد العناصر يتضمن «علاقة مزدوجة من شعور الحنين إلى أرض وطنٍ متخيَّل ومؤجَّل، يحسّ به أفراد الإثنية الواحدة في كل أنحاء العالم؛ ومن الشعور بالانتماء إلى الدولة التي يعيش فيها المهاجر» (ص ٨). ويشير طبر إلى التصنيف المنهجي لكوهين (Cohen) للمجموعات الشتاتية من خلال التسليم بارتباطهم بوطن رمزي. وتعتمد دراسته للنماذج (Typology) على دراسة حركة العودة من الشتات، واستمرارية الصلات الاجتماعية، والسفر إلى الوطن والاستثمار فيه، والارتباط بمجموعة إثنية (ص ٧). وهذا التجميع (Collectivization) للأشخاص ضمن مجال أوسع من الارتباطات، يبيّن كيف أن المجموعات

(*) البريد الإلكتروني: she.08@hotmaill.com.

الشتاتية تتميز بالتشتّت (Dispersion) وبالتجمع (Gathering) في الوقت ذاته (ص ٢٣). ولذلك نرى أنه من منظور الدولة القومية يمكن اعتبار الشتات امتداداً للمجموعة القومية (ص ٣٤).

ولكن، ثمة نقطة جوهرية ينبغي إدراكها، وهي أن المهاجرين اللبنانيين في أنحاء العالم مروا بتجارب متباينة من شأنها أن تؤدي إلى نزع سمة التجانس (De-homogenization) عن الهوية الشتاتية اللبنانية. فعلى رغم كل شيء، تعتمد التجربة الشتاتية في بلد جديد، على النوع والطبقة والرأسمال الاقتصادي والاجتماعي، والفرص المتاحة لتنمية هذا الرأسمال في الدولة المضيفة (ص ٨). ومع أن الاستخدام المتداول لتعبير «الهوية» يتضمن بداهة الاستقرار والثبات والتجانس، فإن هوية الفرد لا تكفّ عن التحوّل (ص ٢٥٦). وكما يقول نكرو (Nikro) في الفصل الخاص به: «... إن كلاً من تعبيرَيْ «لبناني» و«شتات» يشيران على التوالي إلى تجربة ما، وإلى محاولة التعامل مع الفضاء والزمن، والمسافة والسفر، والماضي والحاضر، والذات والآخر... فالهوية تظلّ مشروعاً مؤقتاً لم يكتمل بعد» (ص ٢١). بالتالي، من الأجدى مقاربة تعبيرَيْ «لبناني» و«شتات» كمجرد مفهومين مطواعين مرِنَين يمكن تكييفهما، بدل مقاربتهما كمفهومين صارميْن ثابتيْن. وفي محاولة للوصول إلى جوهر الطبيعة الاستمرارية (Continuative) والتحوّلية (Transformative) للهوية ضمن فضاء (Space) جديد، يؤثر فاري (Farry) استخدام تعبير «اللبنانية» (Lebaneseness) لدى مناقشة ما يطلق عليه الآخرون «الهوية اللبنانية». ويبدو هذا القرار بالنسبة إلى الكاتب محاولة لفصم عرى الاتحاد الراسخ بين الإثنية والهوية. وبخلاف «الهوية اللبنانية» التي تبدو راسخة وثابتة، وتحمل إيحاء بوجود مكوِّنات متأصلة لمعنى كون الفرد لبنانياً، تمثل «اللبنانية» اللحظات الأكثر ضبابية وتقلباً في عملية تحديد الهوية حيث تجري أشكلة (Problematise) الهويات وجعلها متعدّدة (Pluralize) والتقاطع معها (ص ٢٥٧).

بدأ اللبنانيون بالهجرة منذ ١٢٠ عاماً، مدفوعين بصورة رئيسية بالمصاعب الاقتصادية، وعدم الاستقرار الاجتماعي والحروب. وقد تشكّل الجزء الأكبر من الشتات اللبناني نتيجة موجتين من الهجرة الجماعية: **الأولى** خلال الفترة ١٨٩٨ ـ ١٩١٤، عندما هاجر ١٠٠,٠٠٠ شخص، **والثانية** خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠، عندما هاجر ٢٧٤,٠٠٠ شخص هرباً من الحرب الأهلية (ص ٣٦). وبالنظر إلى كون معظم العائلات اللبنانية فقيرة في أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانت الهجرة تُعتبر «استثماراً عائلياً» (ص ٢٥٥). وكانت تلك المجموعات المهاجرة في جميع أنحاء العالم تميل إلى تأسيس مشاريع عمل صغيرة من نوع متاجر البيع بالمفرق، ومطاعم، ومحلات بيع الأغذية، ومختلف أنواع الخدمات (ص ١٩٥). وهناك سمة تتكرّر في مشاريع العمل في الشتات، وهي تشغيل أفراد العائلة، أو أشخاص من المجموعة الإثنية نفسها. ويقضي جميع أفراد العائلة، عادة، ساعات طويلة، غالباً دون أجر، في الاهتمام بالعمل. ويصف كولنز (Collins) الوضع بالقول: «تؤمن العائلات العمالة

والرأسمال والمشورة، ويؤمن اللبنانيون الآخرون البضائع والخدمات والزبائن، وأحياناً، شبكات تجارة عبر البحار» (ص ١٩٧). وبالإضافة إلى المزايا الاقتصادية، تخلق الشبكات القرابية شعوراً بالتضامن الاجتماعي المشترك (Communal)، ولا سيما في أوقات العوز (ص ٢٧٥).

ورغم جميع الجهود المبذولة من قِبَل اللبنانيين في الشتات، يعاني عدد كبير منهم الفقر والبطالة في بعض البلاد، كأستراليا مثلاً. وتكشف أرقام الإحصاءات أن معدلات البطالة بين اللبنانيين تبلغ ثلاثة أو أربعة أضعاف المعدل الوسطي الوطني في أستراليا. كما نجد أن ٢٥,٥ بالمئة من العائلات ذات الأصل اللبناني العاملة، تكسب أقل من ٢٠٨,٠٠٠ دولار في العام (ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤). أما اللبنانيون الذين يصبحون من ذوي النفوذ الاقتصادي، فيواجهون عداوة مزدوجة، بسبب قوتهم الاقتصادية، وبسبب وضعهم كأفراد أقلية. ويتحول اللبنانيون في السنغال، شأنهم شأن العديد من الأقليات الإثنية، إلى كبش فداء يتحمل وزر المصاعب الاقتصادية التي يعانيها المواطنون. ويبدو ذلك واضحاً في مقال ظهر في صحيفة سنغالية، حيث ورد في المقال: «... إنهم يكسبون ثروتهم على حساب المواطنين بحرمانهم من العمل أو بالتلاعب بالتجارة والتشغيل...» (ص ١٣٩). مع ذلك، فإن النجاح التجاري والصعود في الحراك الاجتماعي (Upward Mobility) يعنيان الاحترام الاجتماعي بالنسبة إلى العدد الأكبر من المهاجرين اللبنانيين (ص ٣٧). فنجاحهم الاقتصادي يمنحهم المكانة والنفوذ في السنغال، وبالتالي يتابع المهاجرون اللبنانيون حياتهم وارتباطهم بالسنغاليين، لأن السنغال هي موطن نجاحهم (ص ١٤٨).

بدأت بعض الدول، مثل نيوزلندا، بناء أمتها بتدمير الاهتمامات الثقافية لمجموعات الأقليات وتقاليدها، وكان ذلك على حساب سكان الأرض الأصليين. وقد تطلبت عملية بناء الأمة هذه فرضاً منهجياً للثقافة الإمبريالية الأوروبية على المجموعات التي كانت مختلفة. نشرت مفاهيمُ الثقافة والهوية ذات الصبغة الأوروبية أفكارَ النقاء العرقي والتجانس، وهو ما خلق مشاعر التعصب العرقي والتحامل في المجتمع (ص ٢٥٧). وقد أدت تلك المفاهيم، في نهاية الأمر، إلى تهميش المجموعات المهاجرة ونشوء منظومة تراتبية تضم «هم» (الشرق) و«نحن» (الغرب). وتضم سجلات الإحصاءات السكانية أمثلة على الخطاب العنصري وتهميش المهاجرين. فإحصاء السكان اللبنانيين في نيوزلندا يفتقر إلى الدقة، بما أن العديد من اللبنانيين لا يسجلون أنفسهم كلبنانيين في الاستمارات. والسبب الرئيسي هو أن استمارات الإحصاء لا تتضمن خانة خاصة باللبنانيين في الجزء الخاص بالهوية الإثنية. بالتالي، على من يرغب في تسجيل نفسه كلبناني أن يشطب أولاً كلمة «آخر»، ومن ثم يحدّد أنه لبناني. ويعتبر تضخم عدد السكان أو انخفاضه في السجلات الإحصائية آلية أمان للأقلية اللبنانية، لأنها غالباً ما تكون كبش الفداء في

الأزمات الاجتماعية والاقتصادية. لكن اعتبار الفرد «غير مرغوب فيه» و«غريباً» و«الآخر» من قِبَل المجتمع المهيمن هو صيرورة خارجية وداخلية. فهذه التعبيرات التي تحمل دلالة سلبية تبدأ بالتأثير في المهاجرين عند مستوى اللاوعي، لأن هؤلاء يبدأون بتمثّلها (Internalize) نتيجة تكرار ارتباطهم بها (Association). وهكذا يبدأ المهاجرون باعتبار أنفسهم «آخر» ويعدِّلون سلوكهم على هذا الأساس (ص ٢٥٨).

ـ ٢ ـ

يواجه معظم المهاجرين إقصاءً (Exclusion) اجتماعياً وتمييزاً عرقياً في الدول المضيفة، ما يؤثر في نهاية الأمر في عملية اندماجهم. كان اعتقاد الجيل الأول من المهاجرين اللبنانيين إلى الغرب أنهم سيعامَلون كأشخاص «بيض» نظراً إلى أنهم يشتركون مع مواطني الدول التي هاجروا إليها بالدين المسيحي. ولكن، لم يمض وقت طويل حتى أدرك اللبنانيون أن «بياض العرق» لا يمكن اختزاله بالدين فقط، فهو يعتمد إلى جانب ذلك على لون البشرة، والموطن الأصلي، والرأسمال الثقافي، واللغة، والتعليم، ونوعية الطعام... إلخ (ص ٢٦٣). في مستهل القرن العشرين، وبالنظر إلى موقع لبنان الجغرافي، تمّ تصنيف اللبنانيين رسمياً على أنهم آسيويين، فكان أن طُبِّق عليهم عدد من القوانين التي استثنتهم من بعض الأعمال المعيّنة، ومن حق التصويت، وحق المواطَنة، والتملُّك، إضافة إلى مجموعة كبيرة من الخدمات الاجتماعية المتوفرة لآخرين (ص ٥٩). ويتوسع منصور، في الفصل الذي أسهم فيه، في وصف الجهود التي لا يستهان بها، والتي بذلها اللبنانيون لفصل أنفسهم عن الآسيويين، وللتأكيد على «البياض» الذي يجمعهم مع الأوروبيين. «فلم يكن يكفي أن يلتزم هؤلاء بالقانون لكي يُمنحوا وضع المساواة. كان يتوجب أيضاً أن تعتبرهم الشرطة أشخاصاً صالحين، وأن يحكم عليهم بعض المواطنين من ذوي المكانة الراسخة ضمن مجتمعهم المحلي بأنهم أشخاص «محترمون»» (ص ٧٠). وكانت النتيجة أن أصبح اللبنانيون تحت المراقبة الدقيقة المستمرة. ولم يقتصر أثر مراقبة الشرطة الدقيقة للمهاجرين على تأكيد الضغط الذي يتعرّضون له للتكيف مع مجتمع الأغلبية، بل إنها، بالإضافة إلى ذلك، رسَّخت شعور الأقلية اللبنانية بـ «الآخرية» (Otherness). وكانت الاستراتيجية النقاشية (Argumentative) الحاسمة التي اتبعوها تتمثل في دحض الفكرة القائلة إن اللبنانيين مهاجرون غير مرغوب فيهم من خلال تأكيد رغبتهم في تمثّل الحضارة الغربية ونجاحهم بذلك، وفي إبراز العادات والأعراف التي يشتركون فيها مع الثقافة المهيمنة (ص ١٠٠). ولم يتخذ نضالهم ضد التمييز والعزل والظلم شكل العصيان المدني، بل لجأوا إلى استخدام الرسائل والعرائض والاجتماعات الرسمية مع المسؤولين، وتقديم الاعتراضات في المحاكم (ص ١٠٥). وحتى في الحالات التي حصل فيها المهاجرون اللبنانيون على حقوق المواطنة، لم يتوقف شعورهم بوجود مستوى ما من التهميش من طرف المجتمع المهيمن بسبب لكنتهم، أو ببساطة بسبب لون بشرتهم.

ثمة استراتيجيات ثلاث شائعة تبدو واضحة بين المهاجرين الذين يتعاملون مع العنصرية ومع التوصيفات (Depictions) المتجانسة للهوية القومية. ويرى فاري أن الاستجابات المذكورة تتضمن: محاولة الامتزاج وتحقيق حركية باتجاه الأعلى، والتعبير عن هويات متباينة في مواقع اجتماعية متباينة، والحفاظ على مسافة فاصلة عن الثقافة المهيمنة واعتبارها ثقافة دونية (ص ٢٦٣).

تعتمد الاستجابة **الأولى** على ذوبان الفرد في المجتمع المهيمن والاندماج به عن طريق تبني الأساليب الغربية والتفاعل مع المجتمع المهيمن على نحو منتظم. ومع أن الذوبان والاندماج يُعتبَران أسلوبين ناجعين، فإنه لا يمكن للفرد أن يصبح «أكثر ملاءمة» دون تجاوز أساليبه التقليدية ونبذها وتعديلها. وبدءاً باللغة، يُتوقَّع من المهاجرين طمس تلك الجوانب من لبنانيتهم التي تختلف اختلافاً بيّناً عمّا هو سائد في مجتمع الأغلبية، وتبني أساليب جديدة.

وتحمل عملية تعلّم لغة جديدة تأثيرات متعارضة على الإنسان المهاجر، بما أنها قد تقوّي التناقض الكامن في تجربة العيش في بيئة جديدة. وقد اعتُبرت اللغة، ولا سيما في أوساط الجيل الأول من المهاجرين، أداة أساسية تساعد على الدخول إلى المجتمع، وعلى الصعود في الحراك الاجتماعي (ص ٢٦١). هذا ولا يمكننا التهوين من صعوبة تعلّم لغة جديدة. واللبنانيون، غالباً، لا يتقنون اللغة الإنكليزية، بل يبتكرون لغة «ليست عربية صرف، لكنها ليست إنكليزية بالتأكيد» (ص ٢٧٠). وفي مقابلات أجراها باحثون يقومون بدراسة حول الشباب اللبناني المهاجر في سيدني، أستراليا، قال بعض أفراد الجيل الثاني من المهاجرين إنهم يتكلمون الإنكليزية والعربية، وإنهم يدمجون اللغتين ليعبّروا عن أفكارهم ومشاعرهم بصورة أفضل. واللافت أن العديد من الشباب الذين أجريت معهم المقابلات قالوا إنهم في لحظات الإحباط أو الغضب يعبّرون عن غضبهم بالصراخ باللغة الإنكليزية. قد يقول قائل إن تفضيل استخدام اللغة الإنكليزية بدل العربية في لحظات الغضب يعكس العداء المرتبط لدى هؤلاء بالغرب. فهم، دون أن يعوا، يربطون اللغة الإنكليزية، لغة المجتمع المهيمن، بالإساءة والعدوانية. ثمة رأي آخر مخالف، وإن كان لا يقل معقولية، مفاده أن استخدام اللغة الإنكليزية للتعبير عمّا هو جدّي ومهم هو، ببساطة، انعكاس لحقيقة أن الفرد يمثل جزءاً من الحياة الاجتماعية ضمن بيئة غربية. بالتالي اعتاد المهاجرون استخدام الإنكليزية أكثر من العربية نتيجة البيئة المحيطة بهم. وبما أن اللغة تعتبر وسيلة أساسية للتعبير عن النفس والنقل (Transmission) الثقافي وتوحيد المجموعات المتماثلة، فهي بذلك تشكل أحد الجوانب الأساسية من الهوية الفردية والثقافية للإنسان. من هنا نفهم دافع الغرب لفرض اللغة الإنكليزية على المهاجرين.

التجزيء (Compartmentalization) هو النوع **الثاني** من الاستجابات التي يلجأ إليها المهاجرون في عملية تكيّفهم مع الحياة في الدول المضيفة. عندما يمارس المهاجر التجزيء، فهو إنما يعدِّل

سلوكه بحسب الظروف التي يجد نفسه فيها، أي بحسب الأشخاص والمكان والزمان.

عملية التجزيء يمارسها غالباً أبناء الجيلين الثاني والثالث من المهاجرين الذين يتعيّن عليهم التوفيق بين نمط حياة أسرهم ونمط حياة غالبية المجتمع. وبما أن أفراد الجيل الثاني من المهاجرين يعيشون حياة اجتماعية تضم منظومات ثقافية متعارضة، فإنهم، في معظم الأحيان، يتحولون إلى كيانات هجينة (Hybridist). يعرِّف فاري الهجانة (Hybridity) بالقول إنه «وسيلة خطابية (Discursive) لوصف عملية الخلط والتحويل و«القطع» و«المزج» والدمج التي تجري عندما يتم تشكيل بُنى الهويات الثقافية على أساس تقاليد ثقافية مختلفة» (ص ٢٦٠). التهجين، إذاً، هو صيرورة خلْق هوية جديدة تجمع بين نمط الحياة القديم ونمط الحياة الجديد، هو الجمع بين نمط الحياة اللبناني ونمط الحياة الغربي.

لكن تجربة الهجين تضم عنصراً ذا طبيعة متضاربة، وهو درجة القدرة على الاختيار التي تنطوي عليها التجربة بداهة. فالشباب من الجيل الثاني من المهاجرين، مثلاً، قد يشعرون بمستوى لا يُستهان به من «الدفع والجذب» بين الأساليب اللبنانية التقليدية، والتقاليد الثقافية للمجتمع المضيف. فإذا اختار هؤلاء اتّباع الأساليب الغربية، يشعر العديد منهم بالقلق خشية ترسيخ مشاعر الغربة التي يحملها أهلهم. وإذا اختاروا الالتزام بالتقاليد اللبنانية، فإنهم بذلك يتابعون حياتهم كغرباء عن المجتمع. وهكذا يشعر المهاجرون أحياناً أنهم في موقف حرج نظراً إلى أن أسلوب الحياة الذي يختارونه يُعتبَر ميثاقاً للولاء. يلجأ العديد من الأفراد إلى «الهجانة الاستراتيجية» حيث يقومون بتبنّي جوانب متعدّدة من ثقافة أهلهم، ومن ثقافة المجتمع المهيمن، بأسلوب يتيح لهم المرونة في التصرّف بحسب الظروف (ص ٢١٩). ويطلق غسان الحاج على التبنّي الاستراتيجي للثقافة المهيمنة اسم «مراكمة البياض (Accumulating Whiteness). مع ذلك، يواجه المهجّنون الانتقاد من الثقافة المهيمنة بسبب عجزهم عن تمثّلها كلياً، كما يواجهون الانتقاد من جيل الأهل لأنهم تخلّوا عن بعض جوانب تراثهم القومي. وهكذا يجد المهجّنون أنفسهم في مواجهة معضلة، فهم «يشعرون بتأنيب الضمير لأنهم تخلوا عن ثقافة أهلهم وعن أصولهم، وأهملوها وتجاهلوها، بل إنهم ربما خانوها. ومن جهة أخرى، يشعرون أنهم، ومهما بلغت درجة إتقانهم لمصطلحات (Idiom) الثقافة المهيمنة، لا يُعتبَرون بأنهم أتقنوا تلك المصطلحات بما يسمح لهم بالحصول على المساواة التي يطمحون إليها» (ص ٢١٩).

النوع **الثالث** للاستجابة للضغوط التي يتعرض لها المهاجر هو الحفاظ على مسافة فاصلة بينه وبين المجتمع المهيمن. والمهاجرون إذ يحافظون على هذه المسافة الفاصلة، إنما يختارون عزل أنفسهم وفصلها عن غالبية المجتمع. ومع أن هذا الخيار قد يبدو معقولاً، لأنه يسمح للمهاجرين بالاحتفاظ بأساليب حياتهم

التقليدية، فإنه في واقع الأمر، لا يفيد سوى بزيادة شعورهم بالتهميش والغربة. هذا بالإضافة إلى أن عزل النفس يلعب دوراً رئيسياً في إذكاء مشاعر العنصرية ضد الأقلية اللبنانية (ص ٢٦٠ ــ ٢٦١). فتحديد بنية اجتماعية لمجموعة إثنية ما، يُنتج، سواء ضمن المجتمع المهيمن أو ضمن المجموعة ذاتها، نماذج إثنية نمطية تدمغ حتى الجرائم بطابع عنصري، وتجعلها مرتبطة بإثنية معينة. وهكذا يتساوى المهاجرون بالمجرمين وتتطور، بالتالي، «ثقافة إجرامية لبنانية». وتبدأ وسائل الإعلام وأسواق العمل ورجال الشرطة والمؤسسات الأخرى، باجترار مواقف التحامل العنصري دون كلل، ولا يعود الجانحون شباباً «أستراليين»، بل هم دائماً «لبنانيون» أو «شرق أوسطيون». وهكذا، يتعرض حتى المواطنون لـ «التجريد من مواطنيتهم» ويُحكم عليهم أن يُعتبَروا «آخرين» نظراً إلى هذا التوصيف العنصري (ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧). والنتيجة، إن تبنِّي سلوكية انعزالية في الأرض «الجديدة» لا يمكنه سوى أن يرتد سلباً بشكل إدامة تهميش المجموعات المهاجرة وعزلها والتعصب ضدها.

ـ ٣ ـ

في الفصل الذي كتبته لايكمان (Leichtman) حول المهاجرين العابرين للحدود القومية، تناقش الكاتبة الأمر من منظورٍ عابر للحدود القومية، قائلة: «المهاجرون لم يعودوا أشخاصاً «انتُزعوا من جذورهم»، وبالتالي فهم بحاجة إلى الذوبان في المجتمع، ولا هم محتجزون داخل أحياء خاصة من نوع «Chinatown» أو «Little Italy»، بل إنهم يتحركون بحرية جيئة وذهاباً عبر الحدود الدولية وبين الثقافات والمنظومات الاجتماعية المختلفة». وترى لايكمان أن المهاجرين في القرن الواحد والعشرين، لن يعودوا مضطرين إلى الاختيار بين الذوبان في المجتمع والتعددية الثقافية، بل إن «... المهاجرين ينشئون مجالات اجتماعية تربط بين بلدهم الأصلي والبلد الذي يستقرون فيه» (ص ١٣١ ــ ١٣٢). ويُعتبر الهجوم الكاسح الذي نشهده لتقنيات التواصل، العنصر الأساسي في عملية موازنة المَواطن المختلفة، والتقاليد المتناقضة، والهوية المتبدِّلة، وهي التقنيات التي تسمح لأفراد الشتات اللبناني المعاصر بالتواصل المستمر مع العائلة، ومع الأصدقاء، ومع الثقافة اللبنانية، ومع الوطن، طوال اليوم وكل يوم. فتلفزيون الكابل، وشبكة الإنترنت، والبريد الإلكتروني، ورخص كلفة الخدمات الهاتفية، وأشرطة الأفلام، تمثِّل بعضاً من تقنيات التواصل العديدة التي تركت أثرها في حياة المهاجر. فبإمكان أفراد الإثنية اللبنانية المشاركة في العلاقات الاجتماعية والسياسة الوطنية، وهم مقيمون في الخارج، كما أن بإمكانهم، في الوقت نفسه، المشاركة في المناسبات الاجتماعية والسياسية للبلد الذي يعيشون فيه (ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠). ورغم أن أشخاصاً عديدين قد يعترضون بحجة صعوبة ازدواجية الولاء، فإن فكرة الانتماء بحدّ ذاتها لا يمكن إلا أن تكون رمزية لأن الأفراد الذين يعيشون في عالم يزداد عولمة سيواجهون باستمرار تنامي «سرعة التحولات الاجتماعية، والهويات

المرنة، واللايقين الفردي» (ص ٥٢).

الدراسات الموجودة في الكتاب تسلِّط الضوء على التاريخ الطويل لمشاعر العنصرية والتحامل والتهميش التي ما يزال أفراد الشتات اللبناني يتعرّضون لها حتى الآن. فالضغوط المادية والنفسية التي يمارسها المجتمع المهيمن، تدفع بالمهاجرين اللبنانيين إلى اتخاذ إجراءات فعالة للتخفيف من «اختلافهم عن الآخرين» (Otherness)، وهو الاختلاف الذي يضعهم في موقع التهديد للنظام الاجتماعي المهيمن. ورغم أن محاولة تخفيف درجة الاختلاف شكّلت على الدوام استراتيجية مهمة تهدف إلى تسهيل الدخول إلى المجتمع وتدبير أمر العيش في بيئة معادية، فإن الصيرورة المستمرة للتمايز (Differentiation) والتهجين تنتج ضمن مجموعات المهاجرين مشاعر التهجير والتضارب و«الحياة المزدوجة». وقد يكون القول الوارد في مقال فاري، خير معبِّر عن النص: «تتمحور الطبيعة المزدوجة لخطاب «الهوية اللبنانية»، حالياً، حول البحث المتواصل عن «الجذور»، والهوية و«الموطن» من جهة، وحول الصيرورة المستمرة للاختلاف والتهجين، من جهة أخرى» (ص ٢٦٦). الكتاب يوضح المآزق التي يواجهها أفراد الشتات اللبناني في جميع أنحاء العالم: سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية. ورغم أن فصول الكتاب تتناول دينامية المهاجر ـ المواطن، والعلاقة التي تربط المهاجر عبر أرض الوطن، فإن الكتاب لم يستطع أن يسبر بشكل كافٍ مدى اعتماد لبنان على مواطنيه في الشتات. فلا يمكن فهم لبنان أو اللبنانيين دون أن نأخذ بالاعتبار التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية والمدنية والسياسية التي يمارسها الشتات على أرض الوطن. ويمكن القول إن بنية أي مؤسسة في لبنان تتأثر، عملياً، تأثراً مباشراً بالرأسمال الاقتصادي والاجتماعي الذي يطوره اللبنانيون الموجودون في الخارج. وبالإضافة إلى ذلك، يقدم الكتاب مجتمعات الشتات، وكأنها تعيش على الهامش، وتحاول دون توقف معالجة مفاهيم الموطن والهوية. ورغم أن هذه الفكرة هي واقع، فإن الدراسات أخفقت في أن تدرك على نحو ملائم أن الحياة على الحدود، مع ما يفرضه واقع عالم يتعولم دون توقف، سوف تكون على الأرجح أمراً مشتركاً بين الجميع □